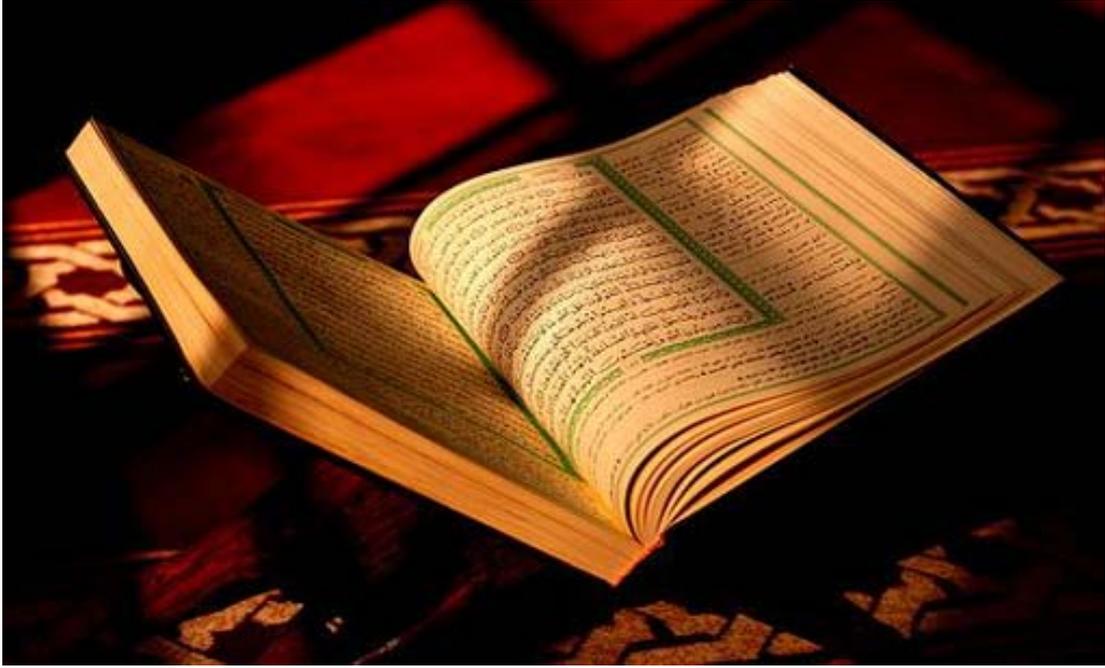


القوى الغيبية في القصة القرآنية



«الأحداث التي تعرضها علينا القصة القرآنية هي من نوع الأحداث التي تسير وفقاً للتدبير الرباني والإشراف الإلهي المباشرين نحو غاية معينة، ولذلك فلا عجب أن يتدخل الإمداد الغيبي واللفظ الإلهي في تسير الكثير من حوادثها وسوقها باتجاه معين يخدم الرسالة والدعوة الإلهية.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول إنَّ (العنصر أو العامل الغيبي) في القصة القرآنية يلعب دوراً مصيرياً حاسماً في تشكيل الأحداث وتغييرها وأحياناً قلبها رأساً على عقب، وعادةً ما يكون هذا (العامل الغيبي) مصحوباً بعنصر المفاجأة سواء كان متمثلاً في عذاب أو إمداد ولفظ أو معجزة خارقة، وهذا الطابع الفجائي يكاد يكون ملاصقاً للعامل الغيبي غير منفك عنه، فالعذاب لا يحدث إلا بغتة – كما صرحت بذلك الآيات القرآنية – كقوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) (الأنعام/ 44)، وقوله: (ثُمَّ يَدُلُّنَا مَكَانَ السَّيْرِ ثُمَّ الْغَنَّةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (الأعراف/ 95)، واللفظ الإلهي المنقذ لأنبيائه وأتباعهم لا ينزل هو الآخر إلا عندما تبلغ القلوب الحناجر، وعندما يوشك المؤمنون على الاستيئاس، كما تصرح بذلك الآيتان القرآنيتان التاليتان: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا لِذُنُوبِهِمْ وَقَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَنَّ مَنْ نَشَاءُ) (يوسف/ 110)، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة/ 214).

ألا وهو اليقين من واقعية الأحداث وصدقها ووقوعها فعلاً، مثل هذا الشعور من شأنه أن يجذب القارئ إلى أحداث القصة إلى أبعد الحدود، كما ومن شأنه أيضاً أن يمنح الأحداث حركة عنيفة، ويملؤها بالصراع والتحركات التي تخرج الأحداث من حالة الرتابة والروتينية.

والحقيقة أن هذه الميزة التي تنفرد بها القصة القرآنية - دونما منازع - تعد من آيات إعجاز القرآن التعبيري، فهو تجمع بين الواقعية والإثارة، ومثل هذه الميزة لا يمكن أن يؤمنها أي قاص دون أن يضطر إلى إضافة بعض المبالغات و(التكتيكات) إلى أحداث عمله القصصي.

أما القصة القرآنية فقد جمعت بإعجاز وبراعة بين الواقعية المحضة وبين عامل الشد والإثارة، ومثل هذا الجمع هو من شأن الإعجاز البلاغي القرآني وحسب.

وقد يسأل سائل في هذا المجال: أليس من المفارقات أن تقلب مسيرة الأحداث بهذا الشكل بغير المتوقع، وألا يحدث هذا القلب رد فعل سلبياً في نفس القارئ قد يصرفه عن متابعة القصة حتى النهاية محملاً بنوع من الاستنكار والاستهجان وهو يجد نفسه أمام نتيجة لم يكن يتوقعها؟

وجواباً على هذا التساؤل نقول: إن مثل هذه المفارقات التي تترك - عادةً - أثراً سلبياً في نفس القارئ، قد تصدق على (القصة البشرية) نتيجة لذلك الشعور الذي يلزم قارئها وهو يتنقل بين صفحاتها، ألا وهو الإحساس بأن القصة ليست واقعية تماماً وأن بعض أحداثها من نسج خيال الكاتب ومن ضمنها العناصر الفجائية القالبة لمجرى الأحداث، ولذلك فإن على الكاتب أن يكون حذراً جداً في اختيار نوعية تلك العناصر وإلا حدثت تلك المفارقات التي من الممكن أن تؤدي إلى فشل عمله القصصي، أما بالنسبة إلى (القصة القرآنية) فإن مثل هذا التساؤل لا يمكن أن يصدق مطلقاً، لأن المفارقات معدودة أصلاً فيها لما ذكرناه سابقاً من أنها تمثل قصصاً حقيقية حدثت بالفعل، ولذلك فإنها لا تتضمن أية مفارقة أساساً لأن المفارقة هي وليدة الاختلاق والافتعال.

النوع الآخر من العناصر الغيبية التي تنفرد بها القصة القرآنية هو عنصر المعاجز والآيات؛ وقبل أن ندخل في الحديث عن تفاصيل هذا العنصر نذكر أننا لا نقصد من هذا الحديث أن هذا العنصر مقصود بحد ذاته للإثارة والجذب لأنه - حالة كحال سائر العناصر - عنصر واقعي حدث فعلاً وأبرزته القصة القرآنية لعرض الواقع ولخدمة أهداف الدعوى الإلهية، ولكننا نريد من ذلك أن هذا العنصر جاء ليؤدي - في إطار المحاولة الإلهية المتكاملة - هدفاً آخر هو إضفاء الحركة اللازمة على الأحداث وتلوينها.

ولعل أفضل مثال يمكن أن نضربه في هذا المجال هو تلك المنازلة التي حدثت بين موسى (ع) وبين سحرة مصر، والتي جرت أمام فرعون وأمام تلك الجموع الغفيرة من الناس، الأمر الذي يزيد من تواجد عنصر الإثارة والتشويق والشد فيها.

والملاحظ على الآيات التي تصوّر لنا هذا الحدث أنها تهيئ نفس القارئ منذ البدء إلى الانشداد للقصة ومتابعة أحداثها من خلال ذلك التحدي الذي يجابه به فرعون موسى بعد أن يريه الأخير الآيات التي بعث بها، ومن خلال تعيين موسى لزمان ومكان المنازلة وتأكيد على أن تكون هذه المنازلة على رؤوس الأشهاد، فلنتابع هذا الحدث على لسان القرآن الكريم: (قَالَ أَجِدْتَنَا لِتُخْرَجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ فَلَنَدَا تَيْدِنَا بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ يَدَيْنَا مَوْجِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَزْوَاجُنَا أَهْلًا مَوْجِدًا وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ بِآيَاتِكَ وَلِيُنزِلَ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ حُجُومًا لَا تَدْرِكُ مَقَاسًا بِهَا خُبْرًا وَلَا تَدْرِكُ مَقَاسًا بِهَا حِسَابًا) (طه/ 57 - 59).

هذه الآيات هي بمثابة الحلقة الأولى من الحدث، الحلقة المنتهية عند نقطة تهيئ الأجواء للحلقة التالية وتثير عوامل التطلُّع الممزوج بالشوق والرغبة الشديدة إلى ما سيحدث فيها، ولا يلبث التصوير القرآني أن ينقلنا إلى ساحة الحدث في الوقت المناسب عندما تكون العيون متطلعة، والأذهان مشدودة، والنفوس ملؤها الترقب والتطلُّع إلى ما سيحدث من تلك الأعمال الخارقة في تلك الساحة المطوقة بمئات العيون المحملقة في فضول: (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلَاقِيََنَا بِسِحْرِكَ وَإِمَّا أَنْ نَمُوتَ)

نَكُونُ أَوَّسَلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ
يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْزَلَهَا تَسْعَى (طه / 65 - 66).

اللحظة الأولى من المباراة؛ الحبال والعصي تتحول في لمحة بصر إلى ثعابين تملأ المكان رُعباً
وذُعباً، وتملاً قلوب الإسرائيليين إشفاقاً على موسى من هذا السحر العظيم: (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا
أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَّهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ) (الأعراف/
116).

وحتى موسى نفسه يستولي عليه الإشفاق، ويتسرب إلى قلبه الشك في قدرة عصاه (المستمدة من القدرة
الإلهية) على إبطال كل ذلك السحر الذي وصفه القرآن بأنه عظيم: (وَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً
مُوسَى) (طه / 67).

وفي هذه اللحظة بالذات يتدخل بطل الحدث (العامل الغيبي) ليقبض - كما في كل مرة - مجرى
الأحداث، وليصرفها عن المسار الذي تتوقع الأذهان في تلك اللحظات التي كانت الظروف فيها في غير صالح
موسى، أن تتحرك فيه: (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)
(طه / 68 - 69)، (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ) (الأعراف / 117).

وهكذا يسدل الستار على هذا الحدث الرهيب المثير الذي انتهى بانتصار العامل الغيبي الذي يجسد
بشكل معجزة أسهمت - بالإضافة إلى إثبات صدق الدعوة الإلهية - في بعث الحركة والحياة إلى الحدث.

وهكذا نرى أن العامل الغيبي يضع القصة القرآنية في مكان متميز متفرد، فهي واقعية لا تنفك هذه
الواقعية عنها (إِنَّ هَذَا لَهُمْ وَالْقَمَعُ الْحَقُّ) (آل عمران / 62)، في نفس الوقت الذي تتضمن
فيه القوى والعوامل الغيبية، وتتجسد فيه هذه القوى والعوامل أطفاف أو معاجز أو آيات أو عذابات،
خلافاً للقصة البشرية التي تدخل في تركيبها وتوظف هذا النوع من العناصر، فإننا ننظر إليها
دائماً بعين الريبة والشك، ولا تكاد فكرة (الأساطير) و(المبالغات) و(الخرافات) تفارقنا ونحن نتابع
أحداثها، بل إن مثل هذا التوظيف الذي هو بأمر الحاجة إلى ذكاء ومهارة وبراعة لا يمكن أن يتوفر
إلا في البلاغة القرآنية، قد ينقلب وبالأعلى على العمل القصصي فيكون أشبه شيء بخدع سينمائية يسخر
الإنسان منها في داخله بدلاً من أن يكون عملاً أدبياً راقياً يؤدي دوره في عالم الأدب والفن. ▶

المصدر: كتاب القصص القرآني (رؤية فنية)